حرُوفٌ مَقْدسيَّة
عَلى السُّورِ الجَريح

AL JUNDI
PUBLISHING HOUSE

رفعت يحيى زيتون

"حروف مقدسية على السور الجريح"

(شعر)

الطبعة الأولى (2011)

جميع الحقوق محفوظة

صدرت عن

دار الجندي للنشر والتوزيع – القدس

00972542263454

info@aljundi.biz
www.aljundi.biz

الإخراج الفني

الأفكار الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، بدون إذن خطي من الناشر.

شعـر

رِفْعَتْ يِحْيَى زَيْتُون

حرُوفٌ مَقْدَسيَّةٌ
عَلى السُّورِ الجَريح

إهْدَاء

إِلى رُوح وَالِدي الطَّاهِرَةِ

وَإِلى وَالِدَتِي

وَإِخْوَانِي وَأَخَوَاتِي

وَإِلى زَوْجتِي وَأَبْنائي وبَناتِي

وَإِلى جَميعِ الأَهْلِ والأَصْدِقاءِ وَكُلِّ مَنْ لَهُم حَقٌّ عَلَيّ وَكُلِّ مَنْ عَلَّمَنِي حَرْفًا

وإِلى أَعْضَاءِ وَرُوّادِ نَدْوَةِ اليَوْمِ السَّابِعِ فِي القُدْسِ الشَّرِيفِ

وإِلى كلِّ أُدَباءِ وَشُعَرَاءِ مُلْتَقى الوَاحَةِ الأَدَبِيَّةِ الذين تَعَلَّمْتُ مِنْهُم الكَثير

وَإِلى عُشّاقِ الضَّادِ فِي كُلِّ مَكَان فِي عَالِمِنا

أُهْدِي هذِهِ الكَلِماتِ المَقْدِسِيَّةِ مَعَ حُبِّي وَتَقْدِيري

رِفْعَتْ يحْيَى زَيْتُون

(القُدْس)

تقديم

"حروف مقدسية على السور الجريح"
أو:
ورود شعرية على جراح الروح

هذه باقة من الورود الشعرية التي خطها قلم شاعر مقدسي يعشق القدس، لأنها القدس، ولأنها المدينة الجميلة بكل ما تعنيه من قيم، وجمال، وتاريخ، وحضارة، وبهاء. ولأنها رمز السلام والعدل والجمال الروحي، يغنّي لها الشاعر رفعت زيتون، ويرفض أن تكون شيئًا آخر غير الذي يجب أن تكون عليه وأن تكونه؛ القدس؛ مدينة الروح.

في باقته الشعرية هذه (حروف مقدسية على السور الجريح)، يغنّي الشاعر المهندس رفعت زيتون للقدس، والحياة، والقلب، والروح. يغنّي للإنسان المقهور وهو يتوق لحريته المشتهاة، وللعامل الكادح المظلوم وهو يجري خلف رغيف خبزه المغموس بدم التعب والمعاناة.

وقد وفّر الشاعر لقصائده هنا موسيقى متدفقة رقراقة هادئة أحيانًا حيث يجب الهدوء والتأمل، حانية تطرب، وتشجي، وتثير الأشجان والمواجع، لتنتزع الـ (آه...) إعجابًا، وتأسيًّا، وحنينًا. وقد تعلو موسيقاه لتستفز وتحرّض وهي تتحدى، أو تواجه.

ولغته في هذه القصائد، تتقدم بخفر عذريّ ساحر في ألفتها، وبساطتها، وبعدها عن الإغراق في التعقيد، والترميز، والغموض، لأنها جاءت قريبة من لغة من يخاطبهم، لأنه يكتب لهم، ويهمه أن يفهموه ليطربوا، ويفعلوا، ولتصلهم الرسالة بوضوح الشعر، ولغته، وموسيقاه، بعيدًا عن تحدي وعيهم، والتلاعب بالمفردات ذات الإيقاع الخالي من الانفعال والشعور.

إنه يتوجه مع قارئه، يأخذ بيده إلى نهاية نهره المتدفق شعرًا، وجمالاً، وأملاً... إلى المصب المأمول حيث البهاء، والنقاء، والأحلام المحققة.

في باقته هذه (حروف مقدسية على السور الجريح)، يلوّن الشاعر المهندس رفعت زيتون أزهاره؛ فمن الحنون البلدي الربيعي الشفاف الجميل، إلى الجوري ذي الأشواك التي تقف بكبرياء تحرس خمرة التاج، إلى الزنبق، إلى الأقحوان ذي الأوراق الطفولية اللاهية وهي توفّر متعة للصغار في عالم البراءة والتوقعات... إلى أن يصل بقارئه إلى جداريته

الطويلة، وهو يحاور فيها معنى الحياة، ويقدّم رؤيته الخاصة مجاريًا بذا تجربة الشعراء الصوفيين، وشعر الزهد العربي.

لهذا كله، نجده وقد طعّم لغته بلغة قرآنية رزينة، وبلغة العصر العباسي الذهبي، وراح يتناص مع قصة سيدنا يوسف في السجن، ويأخذ من صاحبيه مثلاً يستحضره إلى أرض القصيدة، وواجهة الذاكرة، وعتبة الواقع.

إنه يهمس حينًا همسًا ناعمًا قريبًا من النفس، فتحس بالكلمات وقد بدأت أحرفها توشوش، وتوسوس وسوسة دافئة.. حين يتغزل بالوطن والمرأة على حد سواء.

وحين يخاطب قارئه ليستحثه على الإقدام والتبصّر، أو النظر في مرآة واقعه المشروخة علّها تعيد للصورة نقاءها واكتمالها، وللروح حياتها ودورها، فإن لغته تعلو وتقسو، فتكثر فيها حروف الجد والتقطيب.

ومن واقع مهنته الهندسية جاءت هندسة القصيدة لافتة مقصودة وقد رسمت بعناية واقتدار. لذا كان البناء الهندسي في قصيدة الشاعر المهندس رفعت زيتون شكلاً ومضمونًا ما وفّر لها كينونتها الخاصة، التي تستمد روحها من موسيقى منتقاة بعناية لتناسب غرضها في إيقاع مؤثّر، وفي أحرف الكلمات والصور الفنية وهي تتضافر في رسم عالمه الفني الأليف

ذي الخصوصية (الزيتونية) وهو يرفعها بيارق على جروح السور الصامد في قدس الأقصى والقيامة.

رفعت زيتون لم يتعجّل النشر، بل انتظر حتى استوى قصيده واستقام فنّه، وأبى الإقدام على تجربة النشر الورقي قبل أن يضمن تقديم ما يسهم به في مسيرة الشعر الفلسطيني، ويضعه في مرتبة متقدمة من الإبداع.

هذه قصائد شعرية؛ واثقة من نفسها، وقارئها. تعيد الثقة بالشعر الذي تربت ذائقة القارئ عليه.

إنها تسهم في بناء مدماك متميز في هيكل شعرنا الفلسطيني والعربي.

إبراهيم جوهر

(القدس، 22 أيلول ،2011)

الجزء الأول

القُدْسِ .. أُغْنِيَتي

إلى عيْنيكِ حَبيبتي

إلى عيْنيكِ تسبِقُني القوافي
وتعرفُ دربَها دونَ انحرافِ
تعاتبني إذا ما همتُ شوقًا
وليسَ الشّوقُ في عيني بِخافِ
ويصبحُ في هواكِ الحرفُ صبًّا
ويُمسي كاتبًا قصصَ العفافِ
أحبّكِ مثلما قدْ هامَ غيري
وأقسمُ بالذي مدّ الفَيافي
بأنّي في غَرامي موجُ بحرٍ
وكالطّوفانِ في العشقِ انجرافي

وإنْ كانَ التّولّهُ فيكِ ذنبًا

فذنبي كانَ مِنْ قبلِ اقترافي

أنا الظّمآنُ في يومي وليلي

وأنتِ الشّهدُ كأسي وارتشافي

ومثلَ النّهرِ مِنْ عسلٍ مُصفّى

يُروّي العاشقينَ على الضّفافِ

وأنتِ الحلمُ قِبلةُ عشقِ أمْسي

وحِبُّ غدي وخِلّي في المنافي

وقربُكِ كالنّدى في وجهِ صُبحي

وبُعدُكِ جمرةٌ تحتَ الأثافي

وأرجو الله أنْ يزدادَ عمري

لكيْ يزدادَ مِنْ حُبّي اغترافي

ألا ويحَ المتيّمِ كيفَ يغدو

منَ الذّوبانِ كالمرضى النِّحافِ

وكيفَ يلينُ للأحبابِ صخرٌ

وينمو الزّرعُ في تربِ الجفافِ

فيا مَنْ وصلُها للرّوحِ روحٌ

عليلُ نسيمها للقلبِ شافِ

أجافي الشّمسَ لستُ بها شغوفًا

ولكنْ عتمَ ليلِكِ لا أجافي

ولستُ أغارُ أنْ يلقاكِ ألفٌ

منَ العُشّاقِ في سَحَرٍ خلافي

وأغدو حارسًا حتّى تنامي

وأسهرُ كالنّجومِ فلا تخافي

فيا منْ قدْ سألتَ وحرتَ فيها

وأنكرتَ التّهافتَ في هتافي

أجيبكَ والحروفُ بها تغنّي

وقلبي مخلصٌ في الحبِّ صافِ

هي الأوطانُ عشقي وانشغالي

وفي روضاتِها يحلو طوافي

هي الأوطانُ قرّةُ عينِ عيني

وإنَّ القدسَ تسكنُ في الشّغافِ

صباحكِ أجملْ

صباحُكِ قدسي
أرقّ وأجملْ.

ومثلُ اكتمالِ
البدورِ وأكملْ.

صباحُكِ أندى العيون اللواتي
نظرنَ إليكِ، إلى قدميكِ،
فصرنَ كفجرٍ بجفنٍ جميلٍ،
وهُدبٍ رقيقٍ،
وطرفٍ مكحّلْ.

فكيفَ بمنْ كانَ بينَ يديكِ،

يقبّلُ في كلِّ صُبحٍ ثراكِ

ويرجو رضاكِ،

وفي ثوبكِ السّندسيِّ

تسربلْ.

صباحُكِ أجملْ،

وليلكِ مهدٌ لحلمِ عيوني،

تنامُ جفوني

على كتفيهِ،

وتغفو كطفلٍ ينامُ قريرًا

على صدرِ أمٍّ،

فليلكِ قدسي منَ الشّهدِ أصفى،

وأحلى، وأشهى،

كخمرِ الجنانِ لذلكَ أثملْ.

فيا أختَ مريمَ في الاصطفاءِ،

كأنّ القداسةَ

ملكُ يمينكِ... والطّهرُ شيّدَ قصرًا بوجهكِ،

والنّورُ في وجنتيكِ تغلغلْ.

ألستِ كتابًا قديمَ الحكايا؟

ونقرأ بين سطوركِ عزًّا عظيمًا،

وعهدًا نفاخرُ فيهِ البرايا،

ومجدًا كبيرًا،

ونصرًا مكلّلْ.

وأرضكِ معراجُ

وحي السّماءِ،

وفيها على كلِّ بابٍ ملاكٌ،

وآثارُ خطوٍ لكلِّ عظيمٍ،

وآياتُ ملكٍ، وعلمُ إمامٍ،
وفي كلِّ دربٍ نبيٌّ ومرسلْ.

تُرابكِ مهوى
فؤادي وعيني، ونبضي
الذي في هواكِ مكبّلْ.

هنالك بيتٌ
صغيرٌ قديمٌ،
يصلي لربٍّ كريمٍ عظيمٍ
بمحرابِ ذكرٍ،
يسبّح ليلاً، ويسجدُ طوعًا
قبيلَ الشّروقِ،
ويرفعُ نحوَ السّماءِ يديهِ

فيدنو منَ الملكوتِ

ويسألْ.

هنالكَ أمّي

تزيلُ الغبارَ عنِ الصّبحِ فجرًا،

وتدعو الغيومَ لتغسلَ وجهي

فتأتي الغيومُ

هناكَ وتهطلْ.

وأسمعُ صوتَ البلابلِ

تشدو بُعيْدَ الأذانِ،

فيبدأ دفؤكِ يسري بروحي،

وأشعرُ أنّي

ملكتُ النّجومَ

وأنَّ ثريّا السّما تتوسّلْ.

ويخفقُ قلبي

باسمكِ دومًا،

ونبضي يردّدُ خلفَ البلابلِ:

يا منْ أحبُّكِ

صُبحكِ أجملْ.

وأنتِ عروسٌ

وما لكِ مهرٌ كأيِّ عروسٍ

سوى الرّوحِ منا،

ومنْ يا حبيبةَ قلبي

سيبخلْ.

وحبّكِ فرضٌ على كلِّ صبٍّ،

وعنديَ أسمى، وأغلى، وأعلى،

فحبُّكِ حتّى كتابٌ منزّلْ.

حبيبة قلبي

خُذي الدّمَ مني

مقدّمَ عشقٍ بدونِ شروطٍ،

وأكتبُ روحي ونفسي وعمري

لأجلكِ يا قدسُ مهرًا

مؤجّلْ.

يا قدسُ صبرًا

يا قدسُ صبرًا، سيعلو وجهُهُ القمرُ
فوقَ المآذنِ، ثمَّ العتمُ يندحرُ
وسوفَ تولدُ عندَ الفجرِ زهرتنا
وفي المساءِ سيشدو فرحَنا الوترُ
يا قدسُ ظنّوا بأنَّ الأرضَ قدْ أكلتْ
ومزّقتها ضروسُ الحقدِ والجدُرُ
ظنّوا وخابوا وإنَّ الصّبحَ موعدُهمْ
والصّبحُ باتَ قريبًا دونكِ العبرُ
فكمْ توالى عليكِ القاسطونَ، وكمْ
عاثَ البُغاةُ فسادًا! كمْ رأى البصرُ!
هذي الكنيسةُ تبكي ذلّ صخرتها
وسورُ مسرى رسولِ الله يحتضرُ

يا دهرُ إنّا شربنا الكأسَ ممتلئًا

مُرًّا، وَقَد نالَ منْ أحلامنا السَّكرُ

والظّلمُ فيكَ توالى حولَ بسمتنا

فهلْ بيومٍ لسانُ الظّلمِ يعتذرُ؟

نحنُ الذين خُطفنا منْ طفولتنا

ثُمَّ اشترانا ترابُ القبرِ والحَجَرُ

لغيرنا الحظّ يسعى دونَ مسألةٍ

بالودّ يُقبِلُ كالشّلالِ ينهمرُ

ونحنُ في كلحٍ، والحبُّ يُخطئنا

نؤتيهِ وجْهًا، فيأبى وجهَنا الدّبرُ

كُرهًا سقانا كغيثٍ دونما سُحُبٍ

إنْ كانَ ذا غيثنا لا جاءَنا المطرُ

عشنا الهوانَ وضرسُ الصّبرِ ينهشنا

أتى علينا فلا لحمٌ فنصطبرُ

وأعينُ الفقدِ والإنكارِ ترصدنا

والدّاءُ والفقرُ والحرمانُ والقترُ

أقرَّنا الهمُّ في كابوسِ جَمرتِهِ

إنْ غابَ عنا سعيرٌ أقبلتْ سقرُ

وإنْ بيومٍ هَزمنا الفقرَ نُغضِبهُ

فيبتلينا لأعوامٍ ونفتقرُ

ويهلكُ الحزنُ أحلامًا نعيش لها

ولكنِ الخوفُ يقربنا فينكسرُ

في العزّ نرفلُ حتّى في مقابرنا

يهابنا الموتُ إذْ يدنو وينتحرُ

يا قدسُ وحدي، وفي الأسفارِ مثقلةٌ

خطايَ قدْ ملّها التّرحالُ والسّفرُ

وأنتِ مجدي وتاريخي وناخَ به

عيرُ البُغاةِ، وفيهِ استوقِدَ الغَرَرُ

وأنا ابنُ همِّكِ لا فرحٌ ألوذُ بِهِ

ولا سرورٌ يلاقيني فأدّخرُ

ستّونَ عُمرًا وأوراقي مبعثرةٌ

في كلِّ عاصمةٍ، والكلُّ يتّجِرُ

ستّونَ جُرحًا ألا يكفي على جسدي

حتّى امتزجتِ بجسمي أيّها الحُبرُ

مُسَهَّدُ الجفنِ، محبوسٌ بغربتِهِ

وأنكرتني تميمٌ، واعتدتْ مُضَرُ

في ذاتِ ذكرى تراءَى الطّيفُ في خلدي

وداهمتني فلولُ الشّوقِ والصّوَرُ

شدّ الرِّحالَ فؤادي عاشقًا ولهًا

إلى عيونِكِ، ثمَّ السّمعُ والبصَرُ

والرّوحُ والنّفسُ منْ أشواقِها انطلقتْ

عندَ النّداءِ فما هانوا، وما انتظروا

حتّى دخلتُ لآهٍ لستُ أفهمها

فيها الضّرارُ يشقُّ الصّدرَ والضّرَرُ

بينَ الأزقّةِ أمشي في مواجعها

وكانَ يمشي قُبيلي فيهمُ الجُسُرُ

أعاتبُ الشّمسَ عنْ تقصيرها خجلاً

فلا تُجيبُ، ولا يأتي لها خبَرُ

واسألُ الخيلَ عنْ نصرٍ فتسألني:

ماذا ستفعلُ دونَ الفارسِ المُهرُ؟

فأفقدُ الوعيَ، أغدو دونَ بوصلتي

وأركبُ البحرَ، لا ترضى بيَ الجُزُرُ

أعودُ أبحثُ عنْ نفسي وعنْ عبثٍ

أقلّبُ الكونَ، ألقاها فتندثرُ

أبقى هناكَ على أطرافِ ذاكرتي

أرجو العبورَ، على الأبوابِ أنتظرُ

فهلْ سأدخلُ منْ أبوابِها مُدني؟

وهلْ بيومٍ غيومُ النّحسِ تنحسرُ؟

يا أمّةً منْ خِلالِ القهرِ أسألكمْ

عنْ ماءِ وجهٍ، وعنْ أسيافكمْ كفروا

ماذا دهاكمْ؟ ألمْ يأنِ المسيرُ، ولمْ

يصحُ السّلاحُ؟ ألا تنهاكُمُ النذرُ؟

يا دهرُ إنّا لحكمِ الله ذلّتُنا

طوعًا وكرهًا، وسوفَ الحقُّ ينتصرُ

يا دهرُ ضاقتْ بنا الدّنيا وما انفرجتْ

وجفَّ في أحلامِنا الينبوعُ والنَّهرُ

جئناكَ نحملُ منْ آمالنا جَبلًا

وضعفَ ذلكَ منْ آلامنا ظهروا

جئناكَ نطرقُ بابَ العدلِ يُنصفنا

فافتحْ كتابكَ، واحكمْ أيّها القدَرُ

على الحاجز العسكريّ

لماذا الدّروبُ الكئيبةُ
تعشقُ طولَ انتظاري؟

وتنشرُ قبحَ الجنودِ غوادٍ،
وليلًا سَوارٍ تحاصرُ أفقَ مدايَ،
لفضحِ احتمالي
وهتكِ اصطباري؟

فأغدو كقطعةِ لحمٍ
يقطِّعُ نابُ الحواجزِ بعضي،
ويصلبُ بعضيَ فوقَ الجدارِ.

تمرُّ الدّقائقُ مرَّ السّحابِ،
فأينَ السّحابُ يظلِّلُ وقتي؟
وأينَ الشّتاءُ يُغيثُ ترابي،
ويطفِئُ فيَّ تغَيُّظَ ناري؟

أراني، وحظّي رفيقًا لدربي
تهادى كروبًا بكأسٍ دهاقٍ،
فبئسَ الصّديقُ سقاني الشّرابَ
بكوبِ المرارِ.

وتعسًا لحظٍّ بوجهٍ عبوسٍ
يُطِلُّ بفيحِ السّنينِ سعيرًا،
يطيبُ لهُ في اللّهيبِ احتظاري.
ويُطربُهُ صوتُ جرحيَ يبكي،
وأنّاتُ قلبيَ عندَ احتضاري.

يُخيِّرُني

بينَ موتي بطيئًا،

وبينَ المنونِ

بسيفِ انتحاري.

وأبحثُ بينَ التّزاحمِ عنّي

لبدءِ الطّقوس وحفلِ الوداعِ،

وهذا يُعيقُ اتّخاذَ قراري.

أماميَ بحرٌ

وخلفيَ جمرٌ،

ويخطفُ عيْنيَّ

برقُ النّعيمِ المُنزّلُ فوقَ

البغايا كغيثِ السّما ترفًا،

فيتيهُ شراعي

وألعنُ موجي

وكلَّ المراكبِ فوقَ بحاري.

حنانيكَ دهري

أما قدْ كفاكَ تكوّرُ شمسي؟

وطعنُ هلالي؟

فماتَ شهيدًا فداءَ نهاري.

أما قدْ كفاكَ تصدُّعُ صخري؟

فأرسلتَ ريحًا تُبعثرُ حلمي،

فجاسَتْ فسادًا

وشقَّتْ غُباري.

حنانيكَ، تالله

هذا الجُّنونُ ونحسُ القضاءِ

الملازمُ خطوي تخطّى خيالي

وهدَّ اقتداري.

فيا نورُ أسرعْ

خطاكَ لفجري،

تقدّمْ إليّ وفكِّ حصاري.

ودعْ بسمةَ الصّبحِ

تكتبُ حرفَ النّسيمِ العليلِ،

وترسمُ طيرًا يغنّي نشيدكَ

يومَ انتصاري.

سأعزفُ لحنَ خلودي

دعيني أردّدُ حُلوَ النّشيدْ
أطوفُ السّماءَ كطيرٍ سعيدْ
أهنّئُ ذاتي بعودةِ ذاتي
وموتِ اغترابي، وعمري الوئيدْ
فقدْ عادَ نصفي لنصفي، وعادتْ
إلى الجسمِ روحي، وجاءَ البريدْ
بأحلى الرّسائلِ توقدُ نورًا
وتطفئُ نيرانَ جنٍّ مريدْ
دعيني فقدْ طالَ ليلُ انتظاري
ليومٍ يجودُ بفجرٍ جديدْ

وصبحٍ تعودُ إليهِ غيومي

فتسقي ترابي بماءِ الورودْ

قضيتُ السّنينَ ألوكُ جراحي

وأشربُ كأسي بطعمِ الصّديدْ

ولاحَ زماني بسيفٍ بغيضٍ

يطاردُ حلمي وحبّي الشّريدْ

فمزّقَ قلبي، وأنقضَ ظهري

وأكدى خُطايَ لهيبُ الصّعيدْ

وحرّقَ جمرُ يميني شمالي

وكنتُ الفتيلَ وزيتَ الوقودْ

فَبِتُّ رمادًا وذكرى انتكاسٍ

وقصّةَ حزنٍ وبيتَ قصيدْ

وكنتُ أراقبُ قابيلَ يَقتلُ

قابيلَ بئسَ حديثُ الجنود

وأسألُ هابيلَ: أينكَ؟ أينَ
الغرابُ يواري قبيحَ الجُحودْ؟
إلى أنْ أطلّتْ سفينةُ نوحٍ
بطوقِ نجاةٍ وطفلٍ وليدْ
يفلُّ الظّلامَ بقبضةِ نورٍ
وعزمٍ يفُلُّ جدارَ الحديدْ
وشقَّ سمائي بنظرةِ حبٍّ
فهلَّ هلالي بليلةِ عيدْ
وأشرقَ وجهي بنورٍ تجلّى
وزالَ سوادُ الليالي العنيدْ
ورحتُ أقبّلُ خدَّ الثّريا
وأمسحُ دمعَ الزّمانِ الفقيدْ
ركضتُ وطرتُ، صرختُ وقلتُ:
لِتعْمَ الشّرورُ وعينُ الحسودْ

وتصحُ عيونُ النّجومِ اللواتي

سلوْنَ الضّياءَ لعمرٍ مديدْ

لهذا سأعزفُ لحنَ خلودي

فقدْ عُدتُ شيئًا بحجمِ الوُجودْ

النّكبةُ والنّكسةُ وجرحٌ لا يزال

(1)

على ماذا أحاسبهمْ؟

على ماضٍ

أتى بطوارفِ الأوجاعِ والسّقَمِ؟!

على يومٍ بلا أملٍ

يفيضُ بوافرِ الظُّلَمِ؟

أحاسبهمْ على رانٍ بأفئدةٍ

وأحلامٍ تعيشُ بآسنِ الوهَمِ؟

لذا لا تسألي عنّي،

دعيني أحتسي همّي،

وإنْ سكنتْ بيومٍ كلُّ أنفاسي،

فلا تبكي أيا أمّي،

فقدْ جفّتْ وريقاتي،

وعمَّ الصّمتُ أسطرَها،

وضاعَ الحبرُ منْ قلَمي.

(2)

فمنذُ النّكبةِ الأولى،

وحتمًا لم تكنْ طوعًا،

ولا مع سابقِ الإصرارِ من أحدٍ،

ولا كانتْ مؤامرةً ومهزلةً،

ولا أحكي عنِ التُّهَمِ،

هناك أظنُّ قدْ كانتْ بدايتنا

مع الحسراتِ والألمِ
مع الأشباحِ والأملاحِ
فوق الجرحِ والسَّأمِ،

هناك أظنُّ لعنتنا قدْ انطلقتْ
وقالوا إنَّ نكبتنا بلا وزنٍ
إذا قيستْ مع النّكباتِ للأمَمِ،
فقُلنا: الحمدُ للرّحمنِ
عمّا جاءَ منْ نِعَمِ.

(3)

وبعدَ النّكبةِ الأولى،
كأنّ الأرضَ لم تشبعْ
من الأشلاءِ، فاجْترّتْ على عَجلٍ
بقايا اللحمِ والعظمِ،

فجاءتْ نكسةٌ أخرى

تمزّقنا وتسحقنا

وتلقَفُ ما تبقّى منْ

كثيرِ الشّوقِ والحُلُمِ،

وتكتبُ صفحةً أخرى

من الأسفارِ والخيَمِ،

وذلًّا في بلادِ الله

منْ عُربٍ ومنْ عجَمِ،

فقالوا مثلما قالوا

عن النّكساتِ والنِّعَمِ،

وقلنا مثلما قلنا

بذاتِ الصّوتِ والنَّغَمِ،

ألا شكرًا لربِّ الكونِ

عمّا كانَ منْ نِعمِ.

(4)

وأعوامٌ كجنحِ الليلِ

قدْ مرّت بلا عددٍ

بلا أملٍ،

بلا عملٍ...

ولا عونٍ ولا مددٍ،

مرورًا بانتفاضتنا

التي صاغتْ هويّتنا

كشعبٍ يعشقُ الأزهارَ

والرُّمانَ والزّيتونَ،

كالأرضِ التي تاقتْ لخطوتنا

وعاشتْ ترتجي يومًا سحابتها،
وكالنّسماتِ تعشقُ خفقةَ العلَمِ.

(5)

إلى أن جاءتِ الأخرى
مُزلزلةً وفاجعةً وحالكةً،
وقاتلةً لذكرى في دفاترنا
مُمزِّقةً لأحلامٍ هي الأنسامُ
فوقَ مذابحِ التّاريخِ...
فوقَ القهرِ والأضَمِ،

هنالك كانتْ الكبرى
بموتِ الحبِّ والقيَمِ،
هناك الذّبحُ للآمالِ مُحتدمٌ،
وإخوةُ رحمِ ذاتِ الأمّ

متَّهَمًا لُمتَّهِمِ،

هنالك فتنةُ اليأجوجِ والمأجوجِ

قدْ فتحتْ،

وخارَ السّدُ

فانسكبتْ سيولُ دَمي.

(6)

وهذا الجرحُ

ما زالتْ مواجعهُ ترحّلنا،

إلى الآلامِ تحجبها عنِ الدّنيا،

دواجي الليلِ والظُّلَمِ.

فهلْ يومًا يتوهُ الحظُّ

أوْ تأتي ابتساماتٌ معَ الإصباحِ

تهمي فوقَ قريتنا

فقدْ ملّتْ مآقينا اقترافَ الدّمعِ

للآثامِ فوقَ الخدِّ يحرقهُ،

متى يا موجُ سوفَ

تقودُ مركبنا إلى جزرٍ

بلا خوفٍ ولا ندَمِ؟

متى يا حظُّ ترسلنا

إلى البسماتِ نضحكها؟

متى يا حظُّ سوفَ تفيضُ

بالكرَمِ؟

سئمتُ القصرَ والوالي

قرأتُ مباهجَ التّاريخِ
في صُحفٍ منَ الأنوار
عنْ مجدٍ وعنْ نصرٍ
وأغنيةٍ وموّالِ.

قرأتُ عنِ اخضرارِ العدلِ
بينَ النّاسِ، يصنعُ ألفَ معجزةٍ،
وتحتَ الحدِّ لا فرقٌ يميّزِهمْ،
فكلِّ النّاسِ في الأمصارِ
قدْ كانوا سواسيةً،
فلا أمَةٌ وسيّدةٌ

ولا شهبندرُ التُّجّارِ

أوْ عبدٌ بلا مالِ.

فأينكَ أيّها القاضي..؟

منَ (الآنِ) الذي قدْ تاقَ للماضي؟

لأيّامٍ أخذتَ الخبزَ فيها

منْ بني الأمراءِ للمسكينِ تفرحُهُ

أتذكُرُ إذْ جعلتَ الحقَّ سلطانًا

على السّلطانِ تذكرُها..؟

تُرى أمْ أنّكَ السّالي؟

أجبني أيّها القاضي الذي امتلأتْ

خزائنُ بيتهِ ذهبًا وأمتعةً وأرصدةً،

أبِعتَ مواجعَ الفقراءِ أشلاءً

لينموَ رأسُ مالِ الحيّةِ الكبرى

ويزهوَ قصرُها العالي؟

فهلْ تاهتْ خطى عمرٍ؟

أمِ الطُّرقاتُ قدْ تاهتْ عنِ الأقدامِ

أمْ ماذا..؟

ومنْ أبكى عيونَ الشَّمسِ فانطفأتْ..؟

منِ المسؤولُ عنْ إفلاسِ بيتِ المالِ؟

عنْ تجفيفِ وادِي النّيلِ؟

ما عادتْ جداولهُ

تمدُّ الغيمَ بالخيراتِ فانقلبتْ

سحائبهُ صحاريَ بطنُها خالٍ.

أجبني أيّها القاضي،

ومنْ أعطى مفاتيحَ المدائنِ، بالتّواطؤِ

معْ ظلامِ الليلِ، للحَجاجِ

كيْ يغشى بلادَ الحبِّ هولاكو؟

وكيْ تبقى جحيمًا في إطارِ الشّرعِ
والقانونِ في مقصورةِ الوالي؟

تغيّرَ طبعُها الأيّامُ
تلكَ طبيعةُ الدّنيا
وسنّةُ كونِنا المجنونِ
لا تبقى على حالٍ.

لقدْ حانتْ صلاةُ الفجرِ
لا يكفي اغتسالٌ من جنابةِ غاصبٍ للحقِّ،
لا تكفي سيولُ الأرضِ حتّى تمحوَ الآثارَ
عنْ وجهٍ علا في الأرضِ فرعونًا
ولا غفرانَ ينفعُ أيّما جرذٍ تراقصَ
مثلَ شيطانٍ بخيلاءٍ
على جثمانِ رئبالِ.

سئمتكَ أيّها القاضي

سئمتُ الحكمَ والأحكامَ والدّستورَ،

ذلكَ صاحبَ الوجهينِ،

تاللهِ سئمتُ الظّلمَ والظّلامَ

والأسيادَ والقوّادَ والأوغادَ

والقيدَ الذي لا يعرفُ الأمراءَ،

ملعونٌ أبو الأمراءِ إنْ سلبوا

منَ الأحداقِ آمالي.

سئمتُ العدلَ يأتينا

على خجلٍ بلا حولٍ،

سئمتُ الفقرَ

والأكواخَ تسقطُ فوقَ ساكنها،

سئمتُ القصر والسّلطانَ

والأمراءَ والوالي.

يا ليلُ فاحذرْ جنودَ الفجرِ

(من زنزانة يوسف الفلسطيني)

السّجنُ كفرٌ كما الأَغلالُ كُفّارُ

أَعمى البصيرةِ خيرَ النَّاسِ يختارُ

والأَسرُ قبرٌ ومنْ في الأسرِ يعرفُهُ

الموتُ يدنو وتدنو قبلَه النَّارُ

والقيدُ منفىً فلا زوجٌ ولا ولدٌ

غابَ الصَّديقُ وعزَّ الجاهُ والجارُ

للهِ أَشكو إِذا يأْجوجُ قدْ فُتِحتْ

وداهمتني معَ الأَوهامِ أَفكارُ

حفرتُ بابًا إلى أَهلٍ سيوصلني

عبرَ الجدارِ وظفرُ الشَّوقِ حفَّارُ

تنامُ عيني وعينُ القلبِ مُسْهدَةٌ

وجيشُ مأْجوجَ فَرّارٌ وكَرّارُ

وحدي، وهذانِ حولي ليسَ غيرُهما

يُصغي إِليَّ، هُما والضِّيقُ سُمَّارُ

يا صاحبيَّ، أَلا فتوى فأُدركُها

في ذاتِ رؤْيا؟ أَلا مُفْتٍ وبشَّارُ؟

إِنِّي أَراني كمنْ قدْ كانَ في نَهَرٍ

دونَ السَّفينةِ والإِلهامُ بحَّارُ

حتَّى صعدتُ على ظهرِ السّماءِ وما

وجدتُ غيمًا، فأَنّى ثَمَّ أَمطارُ؟

ماذا تقولانِ في الأَضغاثِ تحملني

بِلا جناحٍ وثوبُ الليلِ ستَّارُ؟

إِلى هنالِكَ حيثُ العينُ شاخصةٌ

عينُ الأَحبّةِ فيها التَّوقُ إِعصارُ

أَهوي إِليهمْ على أَطلالِ أَفئدةٍ
يقودُ روحِيَ إِقبالٌ وإِدبارُ
أَخشى عليَّ إذا أصحو، فقدتُهُمُ
فالحلمُ وهمٌ ومثلُ البحرِ غدَّارُ
يا صاحبيَّ ومنْ لي اليومَ غيرُكما
أَنتَ الظّلامُ وهذا التّوأَمُ الغارُ
فلتسمعا لحديثِ الهمِّ أَسرُدهُ
كونا النّصيرَ، فما في الكونِ أَنصارُ
قدْ تفهمانِ جنوني والضَّياعَ وقدْ
لا تفهمانِ... وسدُّ الصَّبرِ ينهارُ
يا أَيُّها الغارُ قدْ ضاعَ الشَّبابُ وقدْ
حلَّ المشيبُ، وما للشِّيبِ أَعذارُ
ليلي مُحيطٌ عظيمُ الموجِ ليسَ لهُ
خِلٌّ وفِيٌّ، وكمْ في اليمِّ أَسرارُ

والوقتُ يجري، وما في العمرِ مُتّسعٌ

والظَّنُّ أَنَّ جيوشَ الموتِ زُوّارُ

ويا ظلامي، صديقي رغمَ قسوتِهِ،

فالحضنُ تُرْبٌ، وإِن الصَّدرَ أَحجارُ

هاتِ اليراعَ وأَوراقًا ومحبرةً

واذكرْ غلاظًا على الأَجسادِ قدْ جاروا

واكتبْ سؤالًا عنِ الأَمجادِ إِذْ فُقِدَتْ

وسيفِ جدّي وغمدٍ لفّهُ العارُ

سَلْ أَينَ خيلي، وأَينَ العدلُ ننشدُهُ؟

هلِ اشتراهُ منَ الأَسواقِ فُجَّارُ؟

يا صاحبيَّ كَواني اليومَ صمتُكما

إِنَّ السّكوتَ عنِ الطُّغيانِ أَوزارُ

لوْ تُخبراني كما في كلِّ نائرةٍ

متى ستأَتي عنِ الآمالِ أَخبارُ؟

نفسي حنانيكِ لا كرمٌ فنعصرُهُ
وشعرُ رأْسي لِطيرِ الموتِ أَوكارُ
حتّى الكواكبُ في أَحلامنا اندثرتْ
والشّمسُ ولَّتْ، وولَّى البدرُ والدّارُ
وصاحباي، ودائِي منْ دوائِهما،
هذا أَصمُّ، وذا أَعشى وختّارُ
هذانِ ويحي وقدْ خاسا بعهدهما
وليسَ ينفعُ جرحَ الغدرِ عطّارُ
كيفَ الضِّياءُ سيأتي دونما قمرٍ؟
لا بدَّ للنّورِ أَنْ تعطيهِ أَقمارُ
يا نفسُ مهلًا فلا يأْتيكِ في ختَلٍ
شيطانُ نزغٍ، هي الأَحداثُ أَقدارُ
وَقِي السُّقوطَ كنسرٍ عاشَ في قممٍ
وَعِي حروفي فهُنَّ اليومَ أَحرارُ

مذْ عهدِ يوسفَ والسَّجانُ منهمكٌ

في قهرِ يوسفَ والأَحزانُ سُعَّارُ

لكنَّ ربَّكِ منْ أَسرارِ حكمتِهِ

إِنْ شاءَ تنمُ خلالَ الصَّخرِ أَزهارُ

لذا فقرّي عيونًا إِنْ بكتْ ذرفتْ

جمرًا، وسالتْ كما البركان أَنهارُ

لوذي بصبرٍ فما دامتْ لمنْ سبَقوا

والدّهرُ يومانِ، إِنَّ الدَّهرَ دوَّارُ

وذا الزَّوالُ لقيظٍ حانَ مغرِبُهُ

صُمْتِ النَّهارَ وبعدَ الصَّومِ إِفطارُ

والليلُ يمضي وإِنْ طالتْ دقائقُهُ

يا ليلُ فاحذرْ جنودَ الفجرِ إِنْ ثاروا

لا شيءَ أهديهِ إليكِ حبيبتي

النّهرُ أحمرُ

والضّفافُ مواجعٌ،

والزّهرُ يذبلُ

في سريرِ الموتِ

فاقتربي.

أحتاجُ دفأكِ

في صراعِ البردِ

حتى أستردَّ الفجرَ في لغتي الحزينةِ،

كيْ أفيقَ اليومَ

منْ كرَبي.

فالحزنُ أصبحَ دولةً
مهووسةً فيها الخُطى،
والهمُّ كالسُّحبِ.

وأنا ترسبتِ الشّكوكُ
سريعةً في قلبِ آمالي
غدوتُ كصخرةٍ مدفونةٍ
في تُربةِ الكذِبِ.

وأنتِ أنتِ حبيبتي
قدْ جئتِ في زمنِ التّراجعِ
وانكسارات المرايا في العيونِ
وحقبةِ الحزَبِ.

وأتيتِ في فصلِ

اشتباكِ الرّيحِ معْ وجهِ السّنابلِ

في قفار البؤسِ والحرمانِ،

واأسفي على وجهِ السّنابلِ

في مهبّ الخوفِ تصفعهُ الرّياحُ

فكانَ كالحطَبِ.

مسكينةٌ واللهِ أنّكِ

قدْ مررتِ بدفتري عندَ الخسوفِ،

حبيبتي، والله هذا

منتهى العجبِ.

لا تعذليني اليومَ

إنْ صرخَ النّهارُ

منَ الأسى في مقلتي،

كُفّي كلامَ اللّومِ

والعتبِ.

لا شيءَ

أهديهِ إليكِ حبيبتي،

لا شيءَ في هذا التّهاوي

والخيانةِ للسّماءِ منَ النّجومِ

فأصبحتْ في الحبّ كالشُّهُبِ.

لا تحلمي برسالةٍ في العشقِ

تكتبها الثّريّا ليلةً،

لا تحلمي بالشّمسِ ترقصُ

في يديكِ، وأغلقي كلَّ النّوافذِ

في حصونِ الفقدِ

واحتجبي.

هذا زمانُ الموتِ

للآمالِ تاريخٌ بلا ظلٍّ

يلازمُ جبهةَ العربِ.

هذا زمانُ الفرِّ

لا كرٌّ تجودُ بهِ صحائفنا

فرّتْ جموعُ الخيلِ من أحلامنا

وتبعثرتْ في صفحةِ

الكتبِ.

عامل فلسطيني

(يوميات على معابر القهر)

سرْ دونَ قلبكَ،
باتّجاهِ القهرِ مُنتعلًا حذاءَ
الجوعِ فوقَ الشّوكِ،
ولتسبقْ خُطاكَ بِناظريكَ
لكيْ تفوزَ بخُبزِ (روما)
ربّما... تُطفي لظى الحِرمانِ
في عينِ الجياعْ.

وامشِ اضطرارًا
في سراديبِ التَّرقُّبِ
وانتظارِ الشَّمسِ، عندَ تزاحمِ

الأنفاسِ في صدرِ الصَّباحِ،
وَدَعْ يراعَ الفهمِ
يكتبْ نعيَهُ،
بمدادِ أحلامِ الضَّياعْ.

سرْ، لستَ وحدكَ،
فالمسيحُ تعثّرتْ خطواتُهُ
في ذاتِ دربكَ، قبلَ ظلماتٍ خلتْ،
هذي الدّماءُ شواهدٌ فوقَ الطّريقِ،
وذا مدادُ دموعهِ،
وانظرْ هنالكَ إذْ هوى
منهُ اليراعْ.

تتشابهُ الأحزانُ والأفراحُ
خلفَ تباطؤِ الخطواتِ

في هذا الطَّريق!

وأنتَ في كلِّ المراحلِ

تختفي، منْ ثُمَّ تظهرُ، ثُمَّ تذهبُ

بينَ موجٍ منْ رؤوسِ النّاسِ

- مثلَ الحشْرِ بعدَ النَّشْرِ -

عندَ الفجْرِ،

- ذلكَ كلَّ يومٍ -

كالسَّفينةِ في البحارِ،

إذا أتاها الموجُ منْ كلِّ الجوانبِ،

ينْحني فيها الشِّراعْ.

قفْ بينَ نفسِكَ

- في انحسارِ العدلِ في دربِ الجنونِ -

وبينَ أكوامِ الجفونِ التّائهاتِ وخوفِها،

قفْ كالرَّواسي فوقَ صبرِكِ صامتًا،

واخدعْ عيونَ الحلمِ،

عِدها بالمنى، وانسجْ وعودَكَ

منْ خيوطِ العنكبوتِ...

وقلْ لها: يا نفسُ لا...

لا تغضبي،

فالصِّدقُ ضلَّ طريقَهُ،

كالحُبِّ في زمنِ الخداعْ.

حدّقْ بوجهِ الوقتِ قاسي القلبِ

- كيفَ تشاءُ - أوْ فاصرخْ به

لا شيءَ يجعلُ منْ دقائقهِ تلينُ!

ألمْ أقلْ؟!

لا شيءَ حتى إنْ بكيتَ،

وإنْ صرختَ، إذا رضيتَ، أوِ انفجرتَ،

فلا صدى للصَّوتِ يُسمعُ أوْ يُذاعْ.

كمْ قاتلٌ هذا التّباطُؤُ

في مسيرِ الوقتِ،

أنّى ينتهي؟

ومتى سيسرعُ في خطاهُ؟

كأنّهُ في مشْيِهِ نملٌ

يجاهدُ في تجاوزِ سيلِ ماءٍ موحلٍ،

والشِّبرُ فيهِ كأنّهُ في البعدِ باعْ.

فاصبرْ قليلًا،

إنَّ ذيلَ الليلِ يمسكُ طرفَهُ

خيطُ الشُّعاعْ.

أدري بأنَّ الدّفءَ في حضنِ اليمامةِ

يشعلُ الإحساسَ في جسدِ اشتياقِكَ،

والحنينَ إلى مناجاةِ الثّريّا والهوى حتّى النُّخاعْ.

أدري بأنّكَ ما هجرتَ الدّفْءَ

حبًّا في عناقِ البردِ،

لكنْ، للضَّرورةِ حقُّها،

في ظلِّ قانونِ الوحوشِ وحكمِهم،

واللهِ أعلمُ أنَّ هذا الحكمَ

يهزأُ بالطّباعْ.

واللهِ أقسمُ

أَنَّهُ دستورُ هذا البيتِ

أصبحَ موحشًا، متوحشًا،

منذُ اغتصابِ الكونِ

منْ قبلِ الضِّباعْ.

آن الأوانُ للانفصالِ

عنِ المكانِ وأهلِهِ،

هذا اقترابُ الضّوءِ

منْ بابِ الصّباحِ،

وإنهُ وقتُ ارتحالِ الرّوحِ

منْ منفى إلى منفى،

يفرُّ الحبُّ لحظتها منَ العشّاقِ،

يفترقونَ عندَ تدافعِ الغاياتِ

لا جدوى منَ الأزهارِ.. لا

فالكلُّ ينسى الودَّ في

صخبِ التَّدافعِ تحتَ أقدامِ الزِّحامِ،

كأنَّهمْ قومٌ رعاعْ.

هذا هوَ الحالُ المقرّرُ مُسبقًا،

حتّى تداسَ النَّرجساتُ لدفعها

نحوَ البكاءِ،

وكمْ يطيبُ لهمْ

- فراعنةُ الزّمانِ-

الدّمعُ منسكبًا على خدِّ الزُّهورِ،
وكمْ لعمري مؤلمٌ مكرُ اللئامِ
إذا اعتلى ظهرَ الصِّراعْ.

سرْ باتّجاهِ السّهمِ،
تلكَ مغارةٌ أخرى تزيدُ البومَ حبًّا
في التَّسلُّطِ في غيابِ النَّسرِ، بلْ وتزيدُ
في ساديّةِ الأنيابِ في جسدِ البلابلِ،
كلما غنّتْ على أغصانها،
فابْكِ البلابلَ، كلُّها أضحتْ سواءً
في دُجى أقفاصها،
والظُّلمُ في كلِّ البقاعْ.

هيا إلى فرنِ الحجارةِ
للتأكُّدِ منْ ضمانِ خلوِّها،

منْ كلِّ إنسانيَّةٍ، ذاكَ امتحانٌ في المرورِ،
إذا رسبتَ فسوفَ تبقى في الجحيم،
وإن نجحتَ مضيتَ فورًا للسّعيرِ،
فكنْ حريصًا في الإجابةِ،
- يا ابنَ أمِّي -
لُذْ بحبّةِ "أسبرينٍ" إنْ هوتْ
منْ فوقِ رأسكَ مثلَ صوتِ الرَّعدِ
مطرقةُ الصُّداعْ.

فاخلعْ حذاءَكَ،
قفْ هناكَ على هوامشِ الانتظارِ
لبدءِ محكمةِ القيامةِ...
سوفَ تُسألُ كمْ مضى منْ نزفِ روحِكَ؟
كمْ ستبقى صامدًا فوقَ اشتعالِ الجمرِ
تحتكَ حافيًا؟

ولربّما سألوكَ عنْ قتلِ ابنِ آدمَ،

والغرابِ، عنِ التُّرابِ!

عنْ الخطيئةِ منذُ نوحٍ!

ربَّما...

سألوكَ منْ في مصرَ قدْ

سرقَ الصُّواعْ؟!

لا يا ابنَ أمّي،

ما انتهى بعدُ امتحانُكَ فاحتملْ،

فهُناكَ مسألةٌ وتمضي بعدَها،

أتُراكَ تؤمنُ بالمودّةِ بينَ أبناءِ الظّباءِ

وبينَ أضراسِ الذِّئابِ؟!

تُراكَ تُؤمنُ بالسَّلامِ؟!

فقُلْ نعمْ إنْ شئتَ ضيمًا،

أوْ فَعُدْ إنْ سدَّ ثغرَكَ الامتناعْ.

لا تعجبنَّ منَ الكلامِ،

أَجبْ...

فرأْيُكَ منْ ضروراتِ العبورِ،

وشرطُهُ، هوَ أنْ تقولَ بأنَّ قطرَ الغيمِ

منْ حقِّ البحارِ،

وأنَّهُ للتُّربةِ العطشى حرامٌ،

يا ابنَ همّي..

عندها، لا تشغَلَنَّ البالَ

في معنى المذلَّةِ والكرامةِ،

وارْثِ أمجادَ السّباعْ.

وتنفَّسِ الصَّمتَ العميقَ للحظةٍ

هذا سبيلكَ للتَّحمُّلِ والتَّأمُّلِ،

ربّما تجدُ الإجابةَ عنْ جفافِ النِّيلِ

في أرضِ الكنانةِ!

أوْ عنِ الليلِ الذي مدَّ الجناحَ بغلظةٍ،
فوقَ الحكاياتِ القديمةِ في سما بغدادَ،
سُحقًا، واستباحَ صباحها!
أوْ عنْ ذبولِ الوردِ في وجهِ
الطّفولةِ في بلادِ الشامِ!
لكنْ، لا أظنُّكَ في قيودِ الذُّلِّ
قدْ تجدُ الإجابةَ عنْ فرارِ الخيلِ
في هذا الزّمانِ، ولا عنِ الفرسانِ
إذْ خلتِ الدّيارُ منَ السُّيوفِ،
ولمْ يعُدْ في أرضِ كنعانَ الغريبةِ
ذو حُسامٍ أوْ شجاعْ!

ربّاهُ ما أقسى التَّساؤلَ
إنْ تأخَّرتِ الإجابةُ؟
كيفَ تقتنعُ البطونُ الجائعاتُ

بلا شرابٍ أوْ طعامٍ إنْ رأتْ أشهاهُ

فوقَ موائدِ الغرباءِ؟

يأبى ذهنُ عصفورِ البراري

أنْ يصدِّقَ ذي الحقيقةَ

بلْ ويأْبى الانصياعْ.

هيّا استفقْ،

هذا النِّداءُ...

وذا المنادي فاستمعْ،

قدْ حانَ دورُكَ لاجتيازِ البؤْسِ

نحوَ البؤْسِ،

خلفَ تكدُّسِ القضبانِ،

هيَّا... قمْ

إلى سوقِ النِّخاسةِ،

يا ابنَ ذُلّي، قدْ تبورُ هناكَ

في سوقِ المهانةِ،

أوْ تُبدَّلُ، أو تُباعْ!

هيّا ابتسمْ،

هذا أوانُكَ كيْ تُجرِّبَ الابتسامَ!

فقدْ أتاكَ الحظُّ يسعى،

ليسَ يسبقهُ الغمامُ،

وقدْ نجحتَ وكنتَ أولَ عابرٍ...

هيّا ابتسمْ..!

قدْ كنتَ في بحرِ الظَّلامِ،

وسوفَ تنقلُ ويحَ عمركَ للظَّلامِ،

ارفعْ يديكَ مُكبّرًا، ومُهلِّلًا،

ودِّعْ هُريرةَ،

والكرامةَ، والعروبةَ،

والحكاياتِ الجميلةَ في كراريسِ البطولةِ،

واسترحْ، وأَرِحْ خيالكَ...

قلْ لهُ:

الآن... قدْ حانَ الوداعْ.

الجزء الثاني

إنسانيّات

إطلالة من نافذة إيليا أبي ماضي

عيناكِ يشبهها غموضُ البحر

عَيْناكِ
يُشبهُها غُموضُ البَحرِ
إنْ حَلَّ المَساءْ.

والدَّمعُ فيها إنْ جَرى
في مُقلتيكِ دَوائِرٌ،
كَالمَوجِ يَتبَعُ بَعضَهُ في حَوضِ مَاءْ.

وَإذا تلظَّتْ في البُكا أهدابُها،
هبَّتْ رِياحٌ وَالغُيومُ تَراكَمتْ،
وهُطولُها لبَّى النداءْ.

أصغيرتي..

ما بَالُ وَجْهِكِ

قدْ تلاشَى فِي الغُروبِ

كَشاطِئٍ أمْضى الحَياةَ

بِلا شُروقٍ والظّلامُ

لهُ رِدَاءْ.

أَحَبيبَتي..

هَذَي الحَياةُ سُوَيْعةٌ

مَسلوبةٌ مِنْها الدّقائقُ

مِثلُ شَمْسٍ زاحَمَتْ

سُحُبَ الشِّتاءْ.

أو رِحْلةٌ

بَيْنَ الضَّبابِ

لِريشَةٍ فِي الجَّوِ
يَحْمِلُها الهَوَاءْ.

والعُمْرُ طَيْفٌ
كَالسَّرابِ نَعيشُهُ،
حُلُمٌ قَصِيرٌ فِي المَنامِ
وإنّنا نَصْحُو إذا
حَلّ القَضاءْ.

فدَعي البُكاءَ
وَغَرّدِي خَلفَ الطُّيورِ
نَشيدَها، وَتَراقَصي مِثْلَ النُّجُومِ
إذا تلاقَتْ فِي السَّماءْ.

هَيّا ارْسمِي

مِنْ حَوْلِ ثَغْرِكِ بَسْمَةً

هَاتِي الشُّمُوعَ وَبَدّدِي

فِيكِ الظَّلامَ ، وَإنْ

دَنا عَتْمٌ جَديدٌ فاشْهِري

فِي وَجْهِهِ سَيفَ الضّياءْ.

أَعْطِي الحَيَاةَ

جَمَالَها، أَنْتِ الجَّمالُ

إذا ابْتَسَمْتِ صغيرتي

لا تَبْخَلي عِنْدَ العَطاءْ.

كَالزّهْرِ كُونِي كَالنَّسيم تَبَخْتَري

فِي رِقَّةٍ.. كُونِي القَساوَةَ كُلها

كّالصَّخْرِ إنْ نَزَلَ البَلاءْ.

آنَ الأَوَانُ لِتَدخُلي

أُفُقَ السُّرورِ، وَتلتَقِي عَيناكِ

بِالفَجْرِ الجَّميلِ، وَعِنْدَهَا

ضُمِّي الصَّبَاحَ وَرَدِّدي:

اللهُ

مَا أحْلَى اللقَاءْ!

سلْ ما تريدُ لكي تعود

ليسَ امتهانًا للمحبّة والهوى
قدْ كانَ منّي ذا التّباعدُ والنّوى
لا، ليسَ طبعي والتياعي شاهدي
لكنَّ قلبي مِنْ تجاهلكَ اكتوى
والصدُّ منكَ أراقَ حبرَ يراعتي
ويكَ التّنائي إنْ على جودي استوى
ولقدْ نويتُ البعدَ كرهًا مرغمًا
لكنّ قلبي، ويحَ قلبيَ ما نوى
فبرغمِ كلِّ جفاءِ طيفكَ إنّ لي
طيفًا عشيقًا عنْ غرامكَ ما ارعوى
أفما علمتَ بأنّ هجركَ قاتلي
وبأنَّ وصلكَ يا طبيبُ هوَ الدّوا

وبأنَّ نجمي في الجُفونِ معلّقٌ

إنْ أغمضتْ عيناكَ في ليلي هوى

قلْ لي فكيفَ يكونُ إن خاصمتني

وقذفتني في بحرِ شوقيَ والجوى

منْ غيرِ طوقٍ للنّجاةِ، وإنّني

في الماءِ أغرقُ كالشّراعِ إذا انطوى

كمْ منْ إشاراتٍ وضعتُ أضعتَها

وفقدتُ في بيداءِ راحتكَ الصُّوى

مثلَ السّرابِ غدوتُ ماءً كاذبًا

أتراهُ غرّكَ فرطُ حبّيَ أوْ غوى

إنْ كانَ غرّكَ لهفتي وتولّهي

والقلبُ فيّ لغيرِ صدركَ ما أوى

فاعلمْ بأنّ النبضَ خانَ مودّتي

ويلي وتحتَ لواءِ نابضكَ انضوى

هذا يسيرٌ إن علمتَ وإنّني

أخشى عليهِ إذا تكسّرَ أو ذوى

أوَ ليسَ يكفي أنْ غدوتَ لمهجتي

نهرَ الحياةِ، ومنكَ ثغري ما ارتوى

يكفيكَ أنّكَ دونَ غيركَ ساكني

وسوى خيالكَ في خيالي ما ثوى

سلْ ما تريدُ لكي تعودَ بليلةٍ

فيها ادْلهمَّ الشوقُ واشتدّ الطّوى

خذْ هاكَ روحي لستُ أملكُ غيرها

خذْ مقلتي ولكَ الفؤادُ وما احتوى

عدْ كيْ أعودَ، فإنَّ عوديَ ناحلٌ

وبدتْ عظامُ الجِسمِ منْ تحتِ الشَّوى

عُدْ عيلَ صبري واليمامةُ غادرتْ

شجرَ انتظاري ثمّ غُصني قدْ خوى

قالت: أنيسَ الرّوحِ رُحماكا

أخافُ عليّ من نفسي
ولستُ أخافُ لقياكا،
وأخشى لهفتي شوقًا
ولستُ أريدُ إلّاكا.

لذا لا تبتعدْ عني
ولا تدنُ فَتُشْقِيَني،
فأوصِدُ للهوى قلبي
وأقتلُ مهجتي بيدي
وأقتلني وأنساكا.

فكنْ منْ حولِ أُمنيتي كما أرضى،
لكيْ أهديكَ منْ قُبَلي
طواعيةً، وألثمُ في الهوى فاكا.

لأنّكَ إنْ تكنْ نهري
أكنْ في الحبِّ لو تدري
زُلالًا سائغًا عذبا
وماءً عمَّ مجراكا.

حبيبي إنْ تسلْ عني
فإني اليومَ عاشقةٌ مذبذبةٌ
أريدُ العومَ والإبحارَ في عينيكَ
لكنّي أخافُ الموجَ فاعذرني،
أنا في حيرتي أجثو
على أطرافِ أحلامي

أمدُّ يدي وأسحبها

فلا أحظى بهذا لا

ولا ذاكا.

وأخطو خطوتينِ إليكَ

واحدةً تراودني، كما الشّيطانُ،

عن نفسي، وأخرى عنكَ تُبعدني

تعاتبُ فيّ إقدامي

فقلْ يا مالكًا قلبي،

إذا ما الشّوقُ مزّقني

فكيفَ الوصلُ يجمعنا؟

أنيسَ الرّوحِ رُحماكا.

أحبّكَ لستُ أنكِرُها،

متيّمةٌ، وهائمةٌ، وأعلنها

بأنّي منذُ آلافٍ
منَ الأعوامِ أهواكا.

وأنّك في السّما شمسٌ،
وهذا الكونُ في نظري
سديمٌ مظلمٌ عتمٌ،
فكيفَ العيشُ لولاكا.

ولولا النّورُ ترسلهُ
إلى الدّنيا وتهديهِ إلى قلبي
فيفرحُ منْ هداياكا.

أريدكَ، كمْ أريدُ النّوم
في عينيكَ تحملني إلى الأحلام
لا أصحو، وكمْ أصبو لنجواكا.

وكمْ أحتاجُ أنْ تأْتي بأمسيةٍ

تراقصني،

أطيرُ بدونِ أجنحةٍ،

إذا وُضعَتْ على خصري

بعتمِ الليلِ كفّاكا.

حبيبي إنْ تغبْ عنّي،

تجفُّ الأرضُ منْ تحتي،

تَمُتْ في الخدِّ أزهاري،

فلا تبخلْ برؤياكا.

وإنّي إنْ حُرِمْتُ القطْرَ،

يكفِ القلبَ في صدري

قليلُ ندى أللمُهُ

إذا ألقتْ بهِ غيماتُكَ الأحلى،

فأزهرُ مثلَ زنبقةٍ
على أبوابِ ذكراكا.

فهلْ يا أجملَ الآمالِ في عمري
فهمتَ الآن أسبابي،
وهذا الخوفَ منْ نفسي
إذا لاقتْ محيّاكا.

فسبحانَ الذي منْ أجملِ
الأوصاف أعطاكا،
ومثلَ البدرِ في الأنوارِ
عندَ الخلقِ سوّاكا.

بِالحُبِّ تَخْبُو النَّارُ يا دِهْقَان

فِي القَصْرِ،
كَانَ تَزاحُمُ الطُّغْيانْ.

ذاتُ المَقاعِدِ، مُنْذُ أَنْ
نَجَتِ السَّفينَةُ مِنْ فَمِ الطُّوفَانْ.

كُلُّ الوُجُوهِ هُناكَ
كانَتْ وَاجِمَةْ.

في حَضْرَةِ الخَوْفِ الشَّديدِ
تَسَاءَلَ الدِّهْقانْ:

مَنْ حَرَّكَ الطُّوفانَ ثانِيَةً؟

مَن أَشْعَلَ البُرْكانْ؟

منْ فَتّحَ الأَجْفَانَ لَيْلاً

في العُيُونِ النَّائِمَةْ؟

مَنْ أرْجَعَ الإبْصَارَ للعُمْيانْ؟

وَيقُولُ: وَيْحَ القَصْرِ إنْ هُمْ أَبْصَروا،

أَوْ أَدْرَكوا مَا الفَرْقُ بَيْنَ

طَبيَعةِ الأَلْوانْ..

ستَكُونَ تِلكَ القَاصِمةْ.

وَلِمَا صَغِيرُ الرِّيحِ

كَشَّرَ فَجْأَةً عَنْ نَابِهِ،

وَتَغَيَّظَتْ زَفرَاتُهُ جَمْرًا

عَلى البُهْتانْ؟

فاسْتَلَّ سَيْفَ الصَّحْوَةِ الكُبْرى،

وَدُونَ تَرَدُّدٍ،

وَهَوَى عَلى أيْدي

الفَسَادِ الآثِمَةْ.

يَتَسَاءَلُ الدِّهْقانْ!

وَهوَ الوَقودُ، وَثَغْرُهُ فِي

الكِيرِ يَنْفُخُ كُلَّ يَوْمٍ

مِنْ شِفَاهٍ ظَالِمَةْ!

وَهُوَ الذي قَدْ وَظَّفَ الشَّيْطانَ،

حَرَّضَهُ عَلَى رَسْمِ الرِّواياتِ الأَليمَةِ،

فَوْقَ أَجْسَادِ البَلابِلِ

والوُجُوهِ البَاسِمَةْ.

قَدْ لازَمَ الأَزْمانَ،

لَيْلاً بَعْدَ لَيْلٍ، بَعْدَ لَيْلٍ،

قَدْ سَلاهُ المَوْتُ فِي دُنْيا

مِنَ الفَوْضَى وَأَرْضٍ عَائِمَةْ

ظَنَّ العَدالَةَ مَصْرِفًا لِحِسَابِهِ،

فَامْتَدَّ بَحْرًا دُونَها شُطْآنْ،

بلْ ظَنَّ أَنَّ النُّورَ

والظُّلُماتِ يَلْتَقِيانْ،

لا وَالذي بِالنُّورِ

بَدَّدَ عَتْمَةَ الأَكْوانْ،

وَمحَا السَّوَادَ مِنَ العُصُورِ القَاتِمَةْ

فَالعَدْلُ أَنْ تَتَوَزَّعَ الأَفْرَاحُ وَالأَحْزَانْ،
أَنْ يُصْبِحَ الإِنْسَانُ كَالإِنْسَانْ،

أَنْ تُرْسِلَ الشَّمْسُ
المَحَبَّةَ لِلجَّميعِ أَشِعَّةً..

النِّصْفُ مِنْ حَقِّ الأَمِيرَةِ وَحْدها،
وَيَكونُ نِصْفٌ مِنْ
نَصيبِ الخَادِمَةْ.

بَلْ أَنْ تَزُولَ بِقَهرِها
كُلُّ الطَّوابِيرِ الحَزِينَةِ
مِنْ دُروبِ الخُبْزِ
فِي هَذا الزَّمانْ.

أَنْ تُمنعَ الألْقَابُ في البلدانْ
أَنْ يَشْبَعَ الفُقَراءُ كَالسُّلْطانْ؛

أَنْ تَنْعَمَ الأجْفَانُ فِي نَوْمٍ عَمِيقٍ
دُونَ كَابُوسٍ يُؤَرِّقُ لَيْلَها؛
مِسْكِينَةٌ تِلْكَ العُيُونُ الحَالِمَةْ.

هَيْهَاتَ تُدْرِكُ أيُّهَا الدِّهْقانْ!
هَيْهَاتَ تُدْرِكُ كَيْفَ وَخْزُ البَرْدِ
فِي جَسَدِ الطُّفُولَةِ يَقْطَعُ الشِّرْيَانْ

هَيْهَاتَ تُدْرِكُ أَنَّهُ
بِالحُبِّ تَخْبو النَّارُ،
لا بِهَرَاوَةِ السَّجّانْ،
وَبِأَنَّ سَيْفَ العَدْلِ أحْفَظُ للعُرُوشِ الحَاكِمَةْ.

أُقْحُوانَةٌ

(إلى رُوحِ مُحَمّد البُوعْزيزي وأرْواحِ رِفَاقِهِ)

الآنَ، مِنْ بعْدِ انْتِقالِكَ
في المَساءِ، إلى سُهولِ النَّخْلِ والرُّمَّانِ
في المُدنِ البَعيدةِ والغَريبَةْ.

تَتَبدَّدُ الأَوْهامُ والأَسْرارُ،
تَبْدو كُلُّها الأَشْياءُ أَقْربَ للحَقيقةِ؛
إِنَّها مُدنٌ عَجيبَةْ.

فَهُناكَ في الأَبَديَّةِ السُّلطانُ أَكْثَرُ رحْمَةً،
وَيَعي بأَنَّ الأُقحوانةَ لمْ تَجِدْ بُدًّا
مِنَ التِّرْحالِ للمَجْهولِ تَحْمِلُها الحَقيبَةْ.

وَهُناكَ خَلْفَ الوَقْتِ،
يَسْتَمِعُ القُضاةُ لِصَوْتِ أَنَّاتِ الحَزينِ..
وَيَعْذرونَ الخاطِئينَ..
وَكُلُّ أُمْنِيَةٍ قَريبَةْ.

وَهُناكَ مَيْلُ القَلْبِ للفُقَراءِ شِبْهُ مُؤَكَّدٍ،
وَالسُّلْطةُ العُليا تُحِبُّ الياسَمينَ
فَلا تَخَفْ؛ قُمْ يا مُحَمَّدُ.. سَلْ هُنالِكَ
ما تُريدُ، فَقَدْ مَضَى عَهْدُ
الدَّهاليزِ المُريبَةْ.

واسأَلْ عَنِ الأَقْمارِ والأَجْداثِ،
كَيْفَ تَوَحَّدَتْ فِيها المَصائِرُ
في بُطُونِ الأَرْضِ،
بَلْ وَبِأَيِّ ذَنْبٍ أُطْفِئَتْ،

كُلُّ المَصابِيحِ المُضيئَةِ في العُيونِ؟
مَنِ الذي قَدْ أَرْسَلَ الأَحْلامَ خَلْفَ الشَّمْسِ؟
غَابَتْ في كَوابِيسٍ رَهيبَةْ.

قُمْ يا مُحَمَّد عِنْدَما
يَطْوي الظَّلامُ جَناحَهُ،
وَارْوِ الحِكايةَ مِنْ جَديدٍ
عَنْ خُسُوفِ البَدْرِ في رَيْعانِهِ،
إِذْ أَخْلَفَ المِيعادَ، لَمْ يَأْتِ الحَبيبَةْ.

وَاقْصُصْ عَلى العشَّاقِ شيئًا مِنْ أَساطِيرِ الخُلودِ،
وَكَيْفَ أَنَّ الحُبَّ مسَّكَ فَجْأَةً،
فَأَثَرْتَ نَقْعَ الشَّوْقِ تَهْفو
نَحْوَ عَيْنيْها الكَئِيبَةْ.

وَاحْذَرْ عَلاماتِ السُّؤَالِ عَنِ الحَقيقةِ
في نموِّ القمحِ فِي حَقْلِ الخَليفَةِ،
دُونَ تَلْقيحِ الرِّياحِ،
كَأَنَّهُ فِعْلُ السِّفاحِ
فَإِنْ أَلَحَّتْ في السُّؤَالِ،
فَقُلْ كَفى يا نَفْسُ تَضْليلًا وَرِيبَةْ.

لَكِنَّهُ، يَأْبَى التَّساؤُلُ أَنْ يَنامَ
فَيوقِظُ الأَفْكارَ جَيْشًا كُلَّما يَغْفو فَريقٌ..
لِلْوَغَى تَصْحُو كَتيبَةْ.

وَيقُولُ دُونَ إِجابَةٍ:
هَلْ كانَ مَوْتُ الأُقْحُوانِ ضَرورَةً؟
حَتَّى يَعودَ الفَجْرُ مِنْ مَنْفاهُ
لِلأَرْضِ السَّليبَةْ!

أَمْ كانَ لِلأقْدارِ دوْرٌ في النِّهايَةِ؟
فَانْتَهَتْ في البَحْرِ يَحْمِلُها جُنونُ المَاءِ
سَارَتْ فَوْقَ أَمْواجٍ مُريبَةْ.

والوَيلُ ما أَقْسَى الحَقيقَةَ
إِنْ تَجَلَّتْ كالنَّهارِ صَريحَةً،
فَسنُدْرِكُ السَّببَ الذِي جعلَ
الطُّيورَ تُغادِرُ الحُلمَ الجَميلَ
ولا تَعودُ لِعشِّها،
والوَيلُ كلُّ الوَيلِ
إِنْ غابَتْ تَراتِيلُ العَدالَةِ
عَنْ أَناشِيدِ الصَّباحِ المَدْرَسيَّةِ؛
تُصْبِحُ الطُّرُقاتُ سُوقًا للنِّخاسةِ،
وَالطُّفُولَةُ قَدْ تَشيخُ عَلى
المَمرَّاتِ العَصيبَةْ.

رَبَّاهُ ما أقْسى الحقيقةَ

أوْ إذا عزَّ الدّواءُ، وإنَّهُ

لا يَصلحُ التِّرياقُ في المرضِ الزُّؤامِ،

وعِندَها نَضْطرُّ لِلْكَيِّ

اتِّقاءَ الدَّاءِ، ثُمَّ الكَيِّ، ثُمَّ الموْتِ،

كيْفَ النارُ تُمْسي رَغْمَ قَسْوَتِها طَبيبَةْ؟

رَبَّاهُ ما أَقْسى الحَقيقةَ

إنَّها تَبدو جَحيمًا

كُلُّ ما فيها.. مُصيبَةْ!

يا حاملاً همّ الحياة

تمضي بكَ الأيامُ نحوَ بعيدها
تُغريكَ بالأوهامِ في أرضٍ بوارْ
بلْ لستَ تدري أينَ تصبحُ أين تمسي
ما النّهايةُ؟ لستَ تملكُ منْ خيارْ
وتظنُّ أنّكَ خيرُ خلقِ اللهِ منْ
أهلِ اليمينِ موقّرًا فوقَ الوقارْ
ولربّما في الأصلِ تلفظُكَ البعوضةُ
مثلما تأْباكَ أحذيةُ اليسارْ
للمالِ تجمعُ كيْ يفوزَ بها غريبٌ
ربّما يأتي بُعيدكَ في نهارْ

مُتورّثًا حتّى السّريرَ وثغرَ زوجكَ

بعدما ضمَّتكَ أحضانُ الجِفارْ

فانظرْ إلى موج البحارِ فكمْ سعى

في كلِّ يومٍ ألفَ مدٍّ وانحسارْ

ماذا جنى منْ سعيهِ غيرَ العناءِ

مضاعفًا، هلْ قدْ أتاكَ بالازدهار؟

يا سائرًا فوقَ الثَّرى كمْ ماكثٍ

تحتَ الثّرى ما بينَ فردوسٍ ونارْ

قدْ كانَ قبلكَ سيّدًا بينَ الورى

واليومَ أغلى منهُ ذرّاتُ الغبارْ

عشْ ما تشاءُ فإنَّ رزقكَ واحدٌ

منْ ثمّ تمضي تاركًا مالًا ودارْ

وإلى بلادٍ غيرها إنْ كنتَ عبدًا

دونَ مالٍ أوْ عظيمًا ذا اغترارْ

ما كانتِ الأعمارُ شيئًا يُشترى

كيْ تشتريها بالدّراهمِ والعقارْ

فلكلِّ نفسٍ وقتها وزمانها

والعمرُ كلُّ العمرِ لحظاتُ انتظارْ

والمالُ ليسَ بثوبِ طهرٍ أو تُقى

ما كانتِ الأخلاقُ منْ صنعِ الخمارْ

ما نفعُ ثوبٍ مونقٍ متعطّرٍ

إنْ كانَ يخفي تحتهُ جسدَ العوارْ

لا تعتلي في التّيهِ إنّكَ ميّتٌ

والميْتُ قبلكَ فلتسلهُ عنِ الجوارْ

ما الفرقُ في الأجداثِ بينَ عظيمةٍ

لمفكّرٍ، أوْ بينَ أضلاعِ الحمارْ

فالكبرُ دعهُ فإنهُ لكَ مُهلكٌ

مهما بلغتَ، ولا تملْ نحوَ الفخارْ

ومنَ الخطايا والكبائرِ فاحترسْ

والعُجبُ يلقي أهلهُ في الانكسارْ

كنْ في حياتكَ كالرّحيقِ معطّرًا

كنْ مثلَ غصنٍ قدْ تسربلَ باخضرارْ

كالدّرِّ بينَ النّاسِ يلمعُ برقهُ

متلألئًا كُنْ كالعقيقِ وكالنّضارْ

والعلمُ يرفعُ منْ مقامِكَ للعُلا

والجهلُ يأتي بالمهانةِ والصَّغارْ

فاطلبْ جليسَ العلمِ واتبعْ ظلَّهُ

منْ يقتربْ للزّهرِ يجنِ منَ الثِّمارْ

يا حائرًا كلُّ الخلائقِ فصّلتْ

في الكونِ منْ ربٍّ حكيمٍ ذي اقتدارْ

فانظرْ عظيمَ الصُّنعِ إذْ لمْ تمتزجْ

فيهِ مياهُ النَّهرِ معْ ماءِ البحارْ

يا حاملاً همّ الحياةِ وناسيًا

أنّ الذي رفعَ السّماءَ بلا جدارْ

وقضاؤهُ في الكافِ ثمَّ بنونهِ

إنْ شاءَ ينمُ الزّرعُ منْ دونِ البذارْ

فاقنعْ بكلِّ قضائهِ.. أينَ المفرُّ

منَ القضاءِ، وهلْ ستملكُ منْ قرارْ

واخضعْ لحكمِ جلالهِ طوعًا وإيّاكَ

الصّدودَ حذارِ منْ هذا حذارْ

واسمعْ لنصحي فالحياةُ تجاربٌ

ما زلتَ تملكُ قبلَ فوتكَ الاختيارْ

وتجاربُ الأيامِ أفقهُ واعظٍ

فيها منَ العبراتِ أعظمُ مُستشارْ

هذي الحياةُ إذا علمتَ فإنها

حسناءُ في وجهٍ رقيقٍ واحمرارْ

لا بُدّ يومًا أنْ يُغادرَ حسنُها

ولسوفَ يغرقُ وجهُها في الاصفرارْ

لا شيءَ يبقى والنّعيمُ مودّعٌ

كلَّ الأنامِ إلى فناءٍ واندثارْ

لا طبَّ ينفعُ والطّبيبُ مفارقٌ

عندَ المنيّةِ لا نجاةَ منَ البوارْ

والمالُ يَفنى مثلَ صاحبهِ الذي

ما جاءَ إلاّ بالقليلِ منَ الغِرارْ

قدْ ظنّ يومًا أنّ ظهرَ الأرضِ لا

يكفيهِ منْ تيهٍ ومنْ فرطِ افتخارْ

فإذا به تكفيهِ أصغرُ حفرةٍ

وبرغمِ أنفٍ يرتضي بطنَ القفارْ

يا سائرًا نحوَ الهلاكِ برجلهِ

كمْ طارقٍ بجهالةٍ باب الدّمارْ

منْ غيرِ علمٍ أنّ فيهِ فناءَهُ

والويلُ كُلُّ الويلِ لوْ دخلَ المسارْ

سهمُ المنونِ إذا أتى يختالُ واسمُكَ

فوقهُ لا ترتجي حسنَ الجِوارْ

فهناكَ بردُ الليلِ يسبحُ في الظَّلامِ

وفي الدُّجى جارٌ وليسَ كأيّ جارْ

وهناكَ لا خلٌّ يؤانسُ وحدةً

لا وجهَ غيدا قدْ يلوحُ منَ الغِمارْ

فلقدْ تبدّلتِ الأسرّةُ والمقاعدُ

والرُّؤى والدّارُ ليستْ أيَّ دارْ

وهناكَ ليسَ سوى رجاءٍ للذي

قهرَ الحياةَ بلحظةٍ دونَ اعتبارْ

فلعلّ رحمتهُ تكونُ كما رجوتَ

وعندها طوبى لمنْ سكنَ الدّيارْ

رحلة.. في السّراب

(جدارية)

أَتيْتَ لِتمْضِيَ مِثْلَ سَرابٍ،

لِمَنْفىً بَعيدْ،

ولَيْلٍ ثقيلٍ، وكهْفٍ حَقيرٍ،

وعُمْرٍ بِغيْرِ الضِّياءِ مَديدْ.

لتُصْبِحَ غيْرَكَ.. ويْحَكَ،

سوْفَ تَسيرُ بِذاتِ الطَّريقِ القَديمِ،

إِلى بَطْنِ وهْمٍ وراءَ التِّلالِ؛

ستمْضِي هُنالِك دونَكَ..

دونَ ابْتسامٍ بِوجْهِ الصَّباحِ،

ودونَ البلابِلِ تشدو كَما قَدْ أَلِفْتَ؛

هُناكَ الحِجارةُ تعْزِفُ لحْنَ الفِراقِ،
وثغْرُ التُّرابِ يغني النَّشيدْ.

ستحْملُكَ الخُطُواتُ بَعيدًا؛
لتدْنوَ مِنْ سِرِّ لغْزِ الحكايةِ،
في درْبِ خوْفٍ،
كثيرِ التَّرَقُّبِ..
درْبٍ غريبٍ بِلا طيْفِ ليلى ولا ماءَ فيهِ؛
لِتصْبِحَ صِفرًا جديدًا كأَوّلِ صفرٍ،
وتسْكنَ سطْرَ رِوايةِ ليْلٍ،
وغُرْبةَ نفْسٍ، وبيْتَ ظلامٍ
وعتْمٍ شديدْ.

وترْكَبَ قهْرًا جَناحَ خَيالٍ،
لدُنْيا خَيالٍ؛

هُناكَ لدَيْكَ الفَراغُ كبيرٌ،
ووقْتٌ كثيرٌ لتُحْصيَ كُلَّ النُّجومِ،
وأنتَ تُجالسُ ندمانَ ليْلكَ، مِنْ غيْرِ راحٍ،
وقهوةُ صُبْحكَ، أَعْذبُ مِنْها
شَرابُ الصَّديدْ.

أَتيْتَ لِكَيْ يشْتَريكَ التُّرابُ بِبخْسٍ،
وفي ذلِكَ البيْعِ قالَ أُولو العلْمِ قوْلًا عَجيبًا
فأَنْصِتْ إِليهِمْ- ودونَ اكْتِئابٍ-:
"فحتَّى تَدورَ الكَواكبُ حوْلَ الشُّموسِ"،
كذلِكَ قالوا!
"وَكَيْ يَسْتقيمَ التَّوازُنُ في الكوْنِ"
آآآهٍ... تَقَرَّرَ أَنَّكَ لا بُدَّ مِنْ
أَنْ تكونَ الفقيدْ.
ولا بُدَّ أَنْ تعْبُرَ الجِسْرَ

فوْقَ الدُّموعِ تعُدُّ الخُطى،
وستُنْكرُ ذاتُ الطَّريقِ خُطاكَ،
ويَنْسى الحَصى إذْ مَرَرْتَ عليهِ،
وتَغْدو حَديثَ الصَّحيفةِ يوْمًا،
وتُمْسي حُروفًا،
يُحيكُ عراها عَيِيٌّ لِسانٍ،
كَما يشْتَهي هُوَ،
لا مِثْلَما أَنتَ كُنتَ تُريدْ.

ولوْ شِئْتَ أَنتَ فماذا ستَجْني؟
وماذا سَينْفَعُ إِنْ كانَ نعْيُكَ
قَدْ كتَبوهُ بِماءِ لُجَيْنٍ؟
بربِّكَ قُلْ لي:
بماذا يُفيدْ؟

شَبيهَ السَّرابِ

تَلاشى الزَّمانُ،

وعهْدُكَ وَلَّى،

فَلا تَعْتَبَنَّ عَلى ساعَةِ الوقْتِ

إِنْ غادرَتْها ظِباءُ الدَّقائِقِ،

بحْثًا عَنِ العُشْبِ فِي وطَنٍ

تَتسابقُ فِيهِ الغُيومُ؛

لِتنْثُرَ قطْرَ النَّدى والمحَبَّةَ حوْلَ الورُودْ.

فدُنياكَ أدْبَرَ فِيها النَّعيمُ،

وأُسْقِطَ في يَدِ يوْمكَ هذا،

وخصْمُكَ جيْشٌ عَديمُ السِّلاحِ،

يفوقُكَ حزْمًا،

يُصِرُّ على الانْتصارِ،

تخفَّى وَراءَ الثَّواني،

ويأْتي على ظهرِ فجأَتهِ بِثباتٍ،
بِقوْلٍ صَريحٍ، ورأْسٍ عَنيدْ.

فعِمْتَ ظَلامًا،
وعَتْمُكَ داجٍ،
ولَيْلُكَ مُنذُ السُّوَيْعَةِ ساجٍ،
ويوْمُكَ هذا: كَثيرُ الحكايا،
كثيرُ الزِّحامِ، وفيهِ التَّسارعُ يرْسمُ خوْفًا،
ويَفتحُ بابًا لِكُلِّ احتِمالٍ،
لِذلكَ عِشْهُ، وخُذْ ما تُريدْ.

تَقَدَّمْ،
فذلِكَ آخِرُ عهْدِ البُطولةِ،
ثُمَّ تَعالَ لِنشدوَ قهْرًا
نشيدًا أَخيرًا- إِذا كانَ وقْتُكَ يَسْمحُ-

قبْلَ غُروبكَ تحْتَ ثَرى وهْمِكَ الأَبَديِّ!

فخُذْ نايَ حُزْنكَ حتى تُغنّي،

وغَنِّ قليلًا، وغَنِّ كثيرًا،

ظنَنْتَ بِأَنّ الأَنينَ سَيبْقى لِنايٍ رقيقٍ

- كَما أَخْبَروكَ - !

فخُضْتَ الحُروبَ، ولكِنْ،

بِسيْفٍ كسيرٍ، وغمْدٍ شريدْ.

ستعْرِفُ أَنَّكَ لا شيْءَ كُنْتَ،

ولمْ تَبقَ نايٌ- كما قَدْ ظنَنْتَ-

وخيلُكَ سوْفَ تملُّكَ يوْمًا، وتُلقيكَ أَرْضًا،

فتفْقِدُ ذِكرى، وتُدْرِكُ أخْرى،

ويَقْتربُ الفهْمُ مِنْ عَقْلكَ البَرْزخيِّ،

وإِذْ ذاكَ ينْزِلُ فوْقَ البَصيرةِ

غيْثُ الحَديدْ.

تقدَّمْ، فأَنْتَ زعيمُ الرِّوايةِ هذا المساء،
ومِحْورُ كُلِّ الحوادِثِ أَنتَ،
وأَنتَ السُّطورُ، وأَنتَ القصيدْ.

وَهاؤُمْ كِتابَكَ؛
فاقْرأْ وقلِّبْ بِنفسِكَ
أوْراقَ عُمركَ كيْفَ تَشاءُ،
وخُذْ مقْعدًا بيْنَ حَرِّ النَّهارِ، وقُرِّ الليالي،
تجُرُّ المَخاوِفَ خلفَكَ ظِلًّا،
وقلبُكَ إذْ ذاكَ يبْلغُ بابَ الحناجِرِ،
ثمَّ سَيهْوي إذا ما أُصيبَ
بسهْمِ الوعيدْ.

ستقْرأُ أَنَّكَ رُحْتَ، وجِئْتَ،
وأَنَّكَ يوْمًا قبَضْتَ، ويوْمًا بسَطْتَ،

وفوْقَ الغُيومِ علَوْتَ.. علَوْتَ،

وتحْتَ الحَضيضِ العميقِ هبَطْتَ،

فهَلْ لا تَزالُ تُخابِطُ رأْسَ غُرورِكَ؟

قلْ لي..

أَلَمْ تَكُ يوْمًا عليكَ رقيبًا؟

أَجِبْني..

فإِنْ لمْ تُجِبْني؛ فإِنَّ سرابَكَ

هذا المساءُ عليكَ شَهيدْ.

فَيا قيْصرًا دُونَ عرْشٍ ومُلكٍ،

وجيْشِ نِفاقٍ،

ستلبِسُ ثوْبَ الرَّقيقِ صَغيرًا،

وقَدْ تَتعرَّى،

وقَدْ تَتمنّى ثِيابَ العبيدْ.

وتهْجُرُ عيْناكَ كُلَّ اتساعٍ،
وتُوطَنُ ضِيقًا،
فهلْ أخْلفَ الخُلْدُ وعْدَكَ صُبْحًا،
وخَانكَ مِثْلَ المَوالي؟
وهَلْ خانَ خزْنَةَ مالِكَ
ثَمَّ حِسابُ الرَّصيدْ؟

عرفْتَ الحقيقةَ عِندَ بُلوغِ التَّراقي،
وإِنَّكَ بعْدَ الهُنَيْهَةِ راقٍ..
وإِنَّ أمامكَ رحْلةَ صَمْتٍ وشَكٍّ،
وللسَّفرِ المُسْتديمِ حَقيبةُ حُزْنٍ،
فخُذْ ما تَبقَّى مِنَ الذِّكْرياتِ
وبعْضِ التَّصاويرِ، حسْبُكَ هذا،
فَفي عالَمِ البُعْدِ والرَّاحلينَ،
لعلَّكَ تَحْتاجُ أجْنِحةً كَيْ تُسافِرَ

عبْرَ الليالي إليْنا،

سينْتظِرُ الليلُ علَّكَ تأْتي...

فهَلْ سوْفَ تأْتي؟

وهَلْ يا رَهينَ الغِيابِ

بِيومٍ قَريبٍ إليْنا تَعودْ؟

جَليسَ التُّرابِ، وَراءَ الحِجابِ،

غزَوْتَ، وفُزْتَ، ونِلْتَ الغَنائِمَ،

مَرحى.. فأينَ المغانِمُ؟

وَلَّتْ لِغيْرِكَ!

وانْظُرْ مليًّا، فَذلِكَ خصْمُكَ

يجْلسُ حوْلَكَ غيْرَ بَعيدْ.

مكانكَ أَصْبحَ في عَبَثِ الفقدِ،

دونَ وقودٍ سِوى نارِ شوْقٍ

لصوْتِ العَصافيرِ عنْدَ الصَّباحِ

تُنادي مَصابيحَ فجْرِ النَّهارِ

ليفْرشَ فوْقَ ستائِرِ بيْتِكَ

ثوْبَ الضِّياءِ؛

فأَيْنَ السَّتائِرُ تلْهو صَباحًا؟

وتِلكَ النَّوافِذُ؟!

أَيْنَ النَّسيمُ بِصوْتٍ خَريدْ؟

ألا ليْتَ شِعْرِكَ،

لوْ كُنْتَ تعلَمُ

أَنَّ فتيلَ السِّراجِ يُساوي كُنوزًا،

لكُنْتَ احْتَفظْتَ بِبعْضِ الكُنوزِ،

لِتُشْعلَ شمْعةَ أُنْسٍ،

إذا ما جُفونُك ألقَتْ عَليكَ

رِداءَ الظَّلامِ السَّميكِ العتيدْ .

هنالِكَ في عتْمةِ الخوفِ

حتْمًا تَضيعُ العُهودُ،

ويُنْكرُ خِلٌّ خليلَ الحياةِ؛

هُناكَ ستسْلو المَشيبَ، وتسْلو

غُرورَ الشَّبابِ، وعهْدَ الطُّفولةِ

ثمَّ ستنْسى سِنِيَّ الرَّضاعِ،

وينْساكَ ثَمَّ سَريرٌ وثوْبٌ؛

فلَهْفي عَليكَ!

واااااااهٍ، واااااهٍ!

أتيْتَ وَحيدًا،

وتمْضي كَطيْفٍ غَريبٍ وَحيدْ.

ولنْ تَستطيعَ قِراءَةَ حظِّكَ هذا المَساءَ،

فَفي عتْمةِ الليلِ يغدو التَّصَفُّحُ صعْبًا،

وحتَّى السُّطورُ ستفْقِدُ كُلَّ الحُروفِ عليها،

إذا غابَتِ الشَّمسُ خلْفَ النَّهارِ،
ونامَ اليَبابُ، وغَشَّى النُّعاسُ
جُفونَ الصَّعيدْ.

فقُلْ لي بِربِّكَ، يا آدَميُّ،
أَذلِكَ أصْبحَ عُنوانَ بيْتكَ..؟
قُلْ لي!!
أَجِبْني:
لِكَيْ لا تَضيعَ الرَّسائِلُ مِنَّا،
وأَجْرُ التِّلاوَةِ في رمضانَ،
ووِرْدُ التَّهانِيَ في كلِّ عِيدٍ،
أَجبْني إذا ما أَتاكَ البَريدْ!

تُراكَ سترْقبُ عُرْسَ هِلالِكَ
في ليْلِ عِيدٍ؛

أَظُنُّ الهِلالَ سيَنْكثُ كُلَّ الوعودِ،
ولنْ يُرْسِلَ النُّورَ فوْقَ الحُقولِ
التي قَدْ تعرَّتْ،
وأضْحى التَّعرِّي ضَرورةَ عهْدٍ
فَبيعَتْ بِسعْرٍ حَقيرٍ زهيدْ.

غريبَ الدِّيارِ،
ترجَّلْ لِتنْفُضَ عنْكَ الغُبارَ
ووعْثاءَ درْبِكَ،
ثُمَّ تبوَّأْ مكانَكَ
- إنْ كُنْتَ تمْلكُ حقَّ اخْتِيارِكَ -
واسْتَفْتِ أضْغاثَ قلبِكَ
قبْلَ النَّوازِلِ تَعْرُكُ حلْمَكَ،
ولا تَكُ في مِرْيةٍ مِنْ هَزيمةِ كُلِّ الصُّخورِ
أَمامَ مطارِقِ موْجِ البِحارِ،

ولا تأْسَفنَّ على مرْكبٍ في دُجاهُ تهاوى،

ولا تبْكِيَنَّ الشِّباكَ إذا التَهَمتْها

صِغارُ الطَّحالِبِ؛

أقْصِرْ، وكفْكِفْ حَريقًا تَرقْرَقَ

مِنْ عيْنِ قهْرِكَ،

إنْ شَبَّ سَوْفَ يُذيبُ

جَليدَ الجليدْ.

أراكَ ذُهلْتَ، وأطْرقْتَ صمْتًا..

كأنَّ الذّهولَ يَسيرُ بِظِلِّ الحقيقةِ دوْمًا،

تحدَّثْ قليلاً، وقُلْ أَيَّ شيْءٍ!

أَما كُنْتَ تغْضَبُ إِنْ كانَ ينْقُصُ

فِنْجانَ شايِكَ شيْءٌ قليلٌ

مِنَ السُّكرِ الحُلوِ؟

أوْ كانَ شيْئًا قليلًا يَزيدْ؟

وكُنْتَ تَمورُ،

وكُنْتَ تَموجُ

وتبْلغُ أعْلى الجِبالِ انْفِعالًا،

وتجْلبُ ظُلْمًا عليها بِرَجْلِكَ،

تزْأَرُ، تصْهلُ،

ترْكبُ صهْوَ جُنونِكَ نَحوَ السَّماءِ،

تَخوضُ البِحارَ كَجِنٍّ مَريدْ!

أَراكَ صَمَتَّ!

فهَلْ غادَرَ الشُّعراءُ قلْبَ القَوافي،

وجَفْنَ الحِسانِ، وعِشْقَ الدِّيارِ؟

أَغادَرتِ الفاتِناتُ سُطورَ القَصائِدِ؟

قُلْ لي: وهَلْ قطَّعَ البوْنُ

حبْلَ الوَريدْ؟

فماذا تَقولُ، أما زِلْتَ تذْكُرُ أحْداقَ ليلى،

وتِلكَ الليالي، وطرْفًا جَميلًا،

ووجْهًا كبدْرٍ يُضيءُ السَّماءَ؟

وثَغْرًا يَزيدُ الحُروفَ اشْتِعالًا،

وشَعْرًا يُغازلُ شيْطانَ شِعْرِكَ؟

آآآآآآهٍ... وفرْشًا تَراءَى كَموْجٍ رقيقٍ،

يُراقِصُ كُلَّ المراكبِ حُبًّا

إذا مالَ خصْرٌ؛

تَراهُ يَميدْ.

أما زلْتَ تذْكرُ؟ كيفَ ستذْكرُ؛

والعِيرُ سارَتْ بِركْبِكَ خلْفَ التِّلالِ البعيدةِ؟!

خلْفَ مُروجٍ مِنَ الشَّوْكِ،

تمْشي سَريعًا، تُثيرُ الغُبارَ،

ليُعْلَنَ في النَّاسِ

قُرْبُ نِهايةِ أُمِّ المعارِكِ،
ثمَّ يُنادى خُذوهُ أسيرًا..
فتهْرُبُ كُلُّ القبائِلِ خوْفًا،
وتَهْوي الحُصونُ أمامَ الجُنودْ.

أراكَ تَخونكَ كُلُّ الطِّباعِ،
كَما الحِسُّ خانَكَ، والشِّعْرُ حتَّى،
وكُلُّ القوافي، وأَحْداقُ ليلى
التي ما أَتمَّتْ لِيوميْنِ عِدَّةَ حُبِّكَ؛
فانْظرْ تَجدْها تُهيِّئُ كلَّ الأَرائِكِ
فرْشًا مُريحًا لقيْسٍ جَديدْ!

ستذْرِفُ بعْضَ الدُّموعِ عليكَ،
لتُثْبِتَ أَنَّ هَواها جَديرٌ بِكُلِّ احْترامٍ،
فيطْبَعُ قيْسٌ- هذا الجَديدُ-

عَلى الخَدِّ قُبْلةَ عطْفٍ

يُخفِّفُ فيها مَواجعَ ليلى،

فتَبْكيكَ أكثرَ بيْنَ يَديْهِ، فيطَبْعُ أُخْرى،

فَتصْرُخُ ليْلاكَ هَلْ مِنْ مَزيدْ!

وأَنْتَ هُناكَ،

تفتِّشُ عَنْ كسْرِ خُبزٍ..

فتسمعُ صوْتَكَ يأْتيكَ همْسًا..

يُخيِّبُ ظنَّكَ،

يسْأَلُ دونَ جَوابٍ مِنْكَ،

يقولُ: "- تُفتِّشُ عنْكَ؟!"

فتذْكُرُ أَنَّكَ كُنْتَ أَتيْتَ، لِتغْدوَ أشهى طَعامٍ

لِضرْسٍ أَكولٍ،

وأَنَّكَ خُبْزٌ لِهذا المَساءِ،

وأَنَّكَ أَنْتَ لذيذُ الثَّريدْ.

وأَنَّكَ كُنْتَ أَتَيْتَ،

ليأْكلَكَ الكهْفُ عامًا طويلًا،

ويتْرُكَ جزْءًا دليلَ افْتِراسٍ،

لِيُثْبِتَ أَنَّكَ لا شيْءَ كُنْتَ؛

تمامًا كَما أَمْسَتِ النَّايُ،

صِرْتُمْ سَواءً،

هَباءً.. هَباءً..

فتَضْحكُ مِنْ سُخْرياتٍ تَوالتْ عَليكَ..

وتَبْكي..

وتَبْكي.. وتَبْكي..!

وتَكْتُبُ فِيكَ قَصيدةَ حُزنٍ،

وتَسْألُ أَيْنَ المِدادُ؟

وأَيْنَ اليراعُ، ودفْترُ شِعْرِكَ؟

تصْرُخُ في وجْهِكَ البَرْزخيِّ..

يُجيبُكَ صمْتُ المكانِ،

كَرعْدٍ بِصوْتٍ عَنيفٍ،

قَويٍّ شَديدْ.

"- تَريَّثْ..

لِتُدْرِكَ بعْضَ الحَقيقةِ،

وانْظرْ لتُدرِكَ أَنّ الحياةَ جناحُ بعوضَةِ ماضٍ تلاشى،

وقَدْ أخْبَروكَ . أَتَذْكُرُ؟!

وَيْحكَ..

{ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحيدْ}".

وَلكِنَّ طبْعَكَ يغْلبُ روْعَكَ

- يا آدميُّ -

فتسْأَلُ أَلْفَ سُؤَالٍ،

لِماذا؟

وماذا؟ وكيْفَ؟ وأَيْنَ؟

وبرْدُ الصَّقيعِ يضُمُّكَ قهْرًا
لصدْرٍ غَليظٍ، وصَخْرٍ بليدْ.

يُغيظُكَ قُبْحُ التُّرابِ،
وفي سَدَفِ الليلِ يعْلو الحنينُ
لِصوْتِ العَصافيرِ خلْفَ النَّوافِذِ،
في كُلِّ صُبْحٍ،
وحوْلكَ لا شيْءَ إلّا
سُكونٌ، وبرْدٌ، وأَذْرعُ عتْمٍ،
تُشكِّلُ ثالوثَ عهْدٍ جديدْ.

وذَرٌّ جُفاةٌ يُبلْبِلُ طبْعَ الهُدوءِ بِهمسٍ
يُؤَكِّدُ قُربَ احتدامِ الوَطيسِ؛
وعيْناكَ ترْقُبُ سيْرَ الجُنودْ.

أَمامكَ جنْدٌ، وخلْفكَ سَدٌّ

يَسوقُ الوقاحَةَ،

يغْرِسُ فيكَ مَخالبَ شتَّى،

يُحطِّمُ كُلَّ قُصورِ الأَماني،

يُبعْثرُ حُلمَكَ،

يخْنُقُ صوْتَ بلابِلِ فجْرِكَ،

يغْدو بغيْرِ صَداهُ، فيَهْوي

بِوادٍ سَحيقٍ، وفَجٍّ بَعيدْ.

جِدارُكَ هذا جِدارٌ ثقيلٌ،

سَلَتْهُ الظِّلالُ،

غَليظٌ، كثيفٌ، أَصَمُّ ، كَفيفٌ،

وكِلْتا يَديْهِ تُريدانِ صيْدَكَ، فاحذرْ!

يَدٌ تسْتَعِدُّ لِرَمْيِ الشِّباكِ،

وأُخْرى لِشَدِّ وِثاقِ القيودْ.

- "تَمَهَّلْ..

كأَنَّكَ تحْلمُ"

تقولُ لنفْسِكَ:

- "مهْلًا.."،

كأَنَّ دُخانًا جميلًا تفشَّى،

تحوَّلَ طيْرًا رقيقًا مُحِبًّا،

يُشابِهُ أَمَّكَ إِذْ كُنْتَ طِفْلًا،

يسُرُّكَ مَدَّ بَصيرةِ ظنِّكَ،

يبْدو بِحجْمَ رَجائِكَ،

يضْربُ وجْهَ الظَّلامِ بِكَفِّ جَناحٍ،

ويدْعو لِتنْزِلَ مائِدَةُ النُّورِ بيْنَ يديْكَ؛

فيضْحَكُ سِنُّ هِلالِ سَمائِكَ،

تفْرَحُ أَنتَ، وتضْحَكُ، ترْقُصُ،

تمْسَحُ دمْعَ عُيونِكَ، تهذي..

تناديكَ..

"- مهلًا .." تقولُ..

كأَنَّك تسْمعُ نايَ نُجومِكَ

تَعْزِفُ لحْنًا جَديدًا

لِفَجْرٍ مُنيرٍ، وعيدٍ سَعيدْ.

وفي زحْمَةِ الفرْحِ،

تسْمعُ صوْتًا وَراءَ الضَّبابِ،

قَريبًا، بَعيدًا،

رَقيقًا كخَيْطٍ يُزاحِمُ سَمَّ الخِياطِ،

يُردِّدُ خلْفَ الجدارِ حَديثًا قَديمًا...

يَقولُ:

"- سَرابًا غَدوْتَ..!

كأَنَّكَ ما كُنْتَ يوْمًا.. وَداعًا!

أَراكَ هُناكَ قَريبًا.. وَراءَ الضَّبابِ،

وَخلْفَ جِدارٍ غَليظٍ كهذا..!

سَلامٌ عليكَ وأَلْفُ سَلامٍ،

على الحُلْمِ يوْمَ أَتيْتَ..

ويوْمَ مضَيْتَ..

ويوْمَ سَيأْتيكَ فجْرٌ جَديدْ".

الفهرست

تقديم- إبراهيم جوهر	7
الجزء الأول- للقدس أغنيتي	**11**
إلى عينيك حبيبتي	13
صباحك أجمل	17
يا قدس صبرًا	24
على الحاجز العسكري	30
سأعزف لحن خلودي	35
النكبة والنكسة وجرح لا يزال	39
سئمت القصر والوالي	47
يا ليل فاحذر جنود الفجر	52
لا شيء أهديه إليك حبيبتي	58
عامل فلسطيني	63

الجزء الثاني- إنسانيات	**79**
عيناك يشبهها غموض البحر	81
سل ما تريد لكي أعود	86
قالت: أنيس الروح رحماكا	89
بالحب تخبو النار يا دهقان	95
أقحوانة	101
يا حاملاً هم الحياة	107
رحلة في السراب	114